تأملات :

ذات اليمين وذات الشمال

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

أوى الفتية إلى الكهف

قالوا إنهم سبعة وثامنهم كلبهم

وقد لجأوا إلى الكهف هاربين من الدنيا يستعجلون الآخرة . والآخرة عندهم جميعاً نهاية نيرة يستطيع كل إنسان أن يصل إليها إذا سلك لها طريقها

ولما كانوا فى المدينة بحثوا طويلاً عن هذه الطريق حتى أعيام البحث ، وكانوا يتفرقون ثم يتجمعون ويسأل بعضهم بعضاً هل اهتدى أحدهم إلى طريق النهاية النيرة ؛ فما كانوا يجيبون وما كانوا يهتدون

وأخيراً قال قائل منهم : ما أظننا واجدين شيئاً ولو قضينا العمر كله هنا فى هذا المكان المنحرف عن مسرى النور ، وتحت هذه الجدران الجاثمة فوق الأرض بأثقالها والقاذفة الأرض بظلالها ، ظلالها الظالمة المعتمة ، التى لا يحب أهلها أن تنتف ، ولا أن تلطف ... فتعالوا بنا إلى هذا الكهف الذى فوق هذا الجبل فإنه أكثر تصدياً للنور ، وأبعد عن حلبة الصراع المخبول ، ولعلنا هناك نهتدى إلى شىء ...

فأوى الفتية إلى الكهف ، وتبعهم الكلب

وكانوا وهم فى الطريق إلى الجبل يسيرون جميعاً صامتين خاشعين مطرقى الرؤوس ، شاهدين على أنفسهم بعجزهم وضعفهم ، مؤملين أن يتاح لهم ما يرجونه حتى إذا ما رحلوا عن هذه الدنيا غادروها وهم أكبر مما كانوا يوم وردوها ...

إلا أحدهم ، فقد كان يضحك . فسألوه عما يضحكه فأشار إليهم ثم أشار إلى نفسه وظل يضحك ، فتركوه يضحك

ولما انتهوا إلى الكهف قال قائلهم : نستطيع الآن أن نتفرق فى أركان هذا الكهف وزواياه ومنافذه ، ولنجتمع بعد يوم كامل لينبئ كل منا صحبه عما رأى ...

فتفرقوا أفراداً ، إلا أحدهم فقد اصطحب أحدهم

أما الكلب فقد جلس حيثما كان وبسط ذراعيه

وذلك الذى كان يضحك ، ظل يضحك ولم يرض أن يتجه إلى ناحية ما يستقر فيها ، وإنما أخذ يطوف بهم ، فكلما رآهم واجين زاد ضحكه ، فإذا رآهم منبسطين تضاعف ضحكه ، حتى الكلب لم ينج من ضحكاته ، بل إنه هو نفسه لم ينج منها ، فقد مر وهو فى تلافيف الكهف بنبع نظر فى مائه فرأى صورته فما استرسل إلا ضحكا ...

حتى إذا جاء إلى الاثنين اللذين تصاحبا سمعهما يتناجيان ، فتخفى وراء صخرة يستزيد سمعاً ... وأرهف للسمع نفسه كمن يستجدى السمع مهرباً من ضيق وأزمة ... مع أنه كان يضحك !

كان الصغير يسأل الكبير قائلاً :

— الآن وقد جئنا إلى هذا الكهف لنبحث عن ذلك الذى دخنا فى البحث عنه لما كنا فى المدينة ، ماذا ترانا صانعين ، وأين ترانا سنبحث ؟ لقد كانت فى المدينة حياة متلونة ، وكنت ترسلنى منها وتقول لى : ابحث . فإذا سألتك عن أى شىء أبحث ؟ قلت لى : سر متيقظاً ، فإما رأيت أو سمعت شيئاً فاسأل نفسك ما هو ؟ وكيف كان ؟ ومن أين جاء ؟ وإلى أين هو ذاهب ؟ فإذا وجدت الجواب عند نفسك فامض بحثاً حتى تقف أمام ما يعجزك تأويله . فكنت إذا أعجزنى تأويل شىء جئت إليك فأولته لى ، وعرفتنى أصله وفصله ، ولم أرك يوماً حرت فى أمر ولا استغلقت عليك مسألة ، بل إنى على العكس من ذلك كنت أراك تجيئنى أحياناً بأحاديث عما رأيت أنت وسمعت مع تفسيره وتأويله ، وما كنت أنا لأخرج منه بشىء إن كنت رأيته أو سمعته ... هذه كانت حالنا فى المدينة ، فكيف تريد بحالنا أن تكون هنا ، ونحن لا نرى شيئاً ولا نسمع شيئاً ، وليس أمامنا إلا هؤلاء الذين جاءوا معنا ، وها هم أولاء كما تراهم متفرقين يبحثون مثلنا عن شىء لا أراه أنا فدلنى عليه إن كنت تراه ...

— هأنذا معك يا بنى ، لا أرى إلا ما ترى ، ولا أسمع إلا ما تسمع

— وهم جميعاً هكذا ، وسنقضى العمر هنا أضيع مما كنا سنقضيه لو أننا بقينا فى المدينة ، فهيا بنا نعد فهناك من غير شك أوفى حياة وأحلى

— صحيح . ولكن أمامنا الآن ونحن هنا فى هذا الكهف شىء ليس فى المدينة ما يشبهه ، وإنه من الخير لنا أن نبقى هنا لنراه

— أما فرغنا من رؤيته بعد ، هذا الكهف وما فيه ؟

— ربما كنا قد فرغنا من استعراض الكهف حقاً ، ولكننا لم نفرغ بعد من استعراض الذين فيه نحن ومن معنا . أما قلنا إننا سنجتمع بعد أن يمضى يوم ؟ أو لا يمكن أن تحدث فى هذا اليوم حوادث لنا وللذين معنا ؟ أو لا يمكن إذا انتهى هذا اليوم أن يقول لنا واحد منا إنه رأى شيئاً أو سمع شيئاً ، ولو فى المنام رؤيا ؟ ثم أليس أمامنا الآن نفسانا ونفوس هؤلاء الذين معنا وقد اعتزموا أن يقضوا يوماً فى الكهف بحثاً ... ألسنا جميعاً أهلاً لأن يرانا راء وأن يسمعنا سامع ونحن على هذه الحال التى لو علم بها أهل المدينة لجعلونا بها سخرية وهزؤاً ؟ ألست تحب أنت أن تسخر وتهزأ ... هوا اسخر واهزأ إن لم تجد أمامك جداً ...

... وهنا قصفت من وراء الصخرة ضحكة انفجرت فى صدر المخنق وراءها لم يستطع أن يحبسها ، فلما دوت الضحكة وفضحته أطل من وراء الصخرة وقال لها وقد استرسل يضحك :

— لقد سبقتكما ، فأنا أضحك منذ كنا تحت ... سنلتقى فى آخر اليوم ، وسأقول ، وستقولان ، وسيقولون ، وسنسمع . وأما أنا فسأظل أضحك ، وأما أنتم ... فمن يدرى

فقال الصغير : نحن الذين سنضحك فى الآخر وأنت ستبكى

وقال الكبير : من يدرى ...

... وهنا ... تثاءب الكلب ...

... فلما تثاءب الكلب تثاءب بعده أقربهم منه ... وكان شاباً صادق الوجه ، فيه ملاحة وفيه خفة وفيه دلال بعثه فى نفسه حب الناس له وإنهالهم عليه ... وكان فيه إلى هذا إهمال ظاهر فى إهماله لنفسه ، ولمحاسنه ولعقله ...

رأى الكلب يتثاءب ، فالتقط منه تكاسله ، وتثاءب هو أيضاً ، ثم طرح نفسه على الأرض ، وقال للكلب :

— أتكون أنت أهدأ منى بالاً ؟ ... لماذا ؟ ... أنا جالس إلى جانبك أحرق نفسى بحثاً عن هذا الذى يبحث عنه هؤلاء جميعاً ، والذى لا أعرف ما هو ، وأنت جاثم نائم مرتاح ؟ لماذا لا أرتاح مثلك ؟ ألأنى أريد مثلهم نهاية نيرة ؟ إن عندى ألف نهاية نيرة ! جلسة عند الراقصات الحور فى جنة تطوفها دانية بين ذراعى تلك التى ... هل تعرف يا أيها الكلب « تلك التى ... » ؟ أو لست تعرفها ... ؟ تعرفها أو لا تعرفها ، فإننى أنا أعرفها ، وسيزورنى الآن طيفها ومعه قطعة من الجنة ، فأحسن استقباله يا صديقى الكلب ، ودله علىّ إذا تاه عنى ، وهأنذا راقد إلى جانبك ... أسعدت مساء ...

... قال هذا ونام ... نام بعد أن غنى لنفسه ما شاء ، وما استطاع ... ومر به الضحاك ، فإذا به نائم ؛ فبانت عليه أمارات الغيظ وانحنى عليه يسأله :

— أنائم أنت ؟ ... فإذا استيقظت فى آخر اليوم ، فماذا أنت قائل لهم إن سألوك عما رأيت وعما سمعت ؟ سنرى ...

... وانصرف الضحاك عنه إلى واحد من أصحابه رآه يثقب سقف الكهف بمثقاب تحته من الحجر . فهم الضحاك بأن يشكو لهذا الصاحب صاحبهما الذى نام ، ولكنه آثر أن يستتر خلف منعطف فى الكهف ، ليرقب هذا الذى يريد أن يخرق الحجر ، وليس شىء وراء الحجر إلا الفضاء

وسطع من جوف الحجر بريق ، فانبهر الثاقب ، وجفل الضحاك . أراد أن يضحك ، ولكنه أمسك عن الضحك ، وآثر مرة أخرى أن يظل يرقب صاحبه ، وهذا البريق الذى لمع من حرف الحجر ، وما عساه أن يحدث بينهما ...

ظل الرجل يثقب ويثقب حتى استخرجها من جوف الحجر حصاة كبيرة شفافة براقة متألقة ، استقبلت النور فعكسته أنواراً ، فراح يتأملها فى إعجاب وفرح ، وأخذ ينفخ فيها ويمسها بأنامله وهو يقول :

— أظنهم مهما جدوا فلن يعثر واحد منهم على ما يشبه هذه ! ولكن ما هذه ؟ على أى حال إنه لا يعنينى كثيراً أن أعرف ما هذه ، ما دمت بهذه أستطيع أن أمتاز على الناس وأن أخلب أنظارهم ؛ فلأخفها ولأكتم أمرها

... وبعد أن كان الضحاك الذى كف الآن عن الضحك ... بعد أن كان يريد أن يشكو صاحبه الذى نام لصاحبه الذى اهتدى إلى قطعة النور المتجمدة ، مضى وفى عزمه أن يشكو صاحبه هذا الأخير لأول من يلقاه من أصحابه ...

فأخذ يتسلل بين منعطفات الكهف حتى أشرف على صاحب آخر رآه ينبش الأرض ويضربها ، وينبش وينكث حتى تفجر من الأرض ماء ، مد الرجل إليه فمه فشرب منه رشفة ، فإذا به

يترنح ترنحاً خفيفاً وإذا به يقول :

— ما في الحياة خير من هذه لذة ... ولا أمتع منها راحة ... سأملأ من هذا الماء قدحاً، وسأسق كلا من أصحابي رشفة فيهدأون ويرتاحون، ويدعون بحثهم واستقصاءهم، فأبحث أنا وأستقصي أنا فإن وجدت بعد ذلك شيئاً أعطيتهم منه القليل ، وادخرت لنفسي مصدره ... لن يكون غير هذا ، ولست ظالمهم ، ولا هم ظالمي ، وإنما لكل منا حظه ...

وكان الضحاك قد نسي الضحك ، واعتراه هم لم يكن يتوقعه واعتراه يأس لم يعرف منشأه ، فأطرق برأسه إلى الأرض ، وسار بخطوات عمياء إلى حيث لا يدري ، وانتهى به المسير إلى حيث كان الكلب راقداً فرقد إلى جانبه هو أيضاً ، ولكنه لم يرقد كما يرقد الناس ، وإنما انبطح على وجهه كالكلب ، وبسط ذراعيه أيضاً كالكلب ...

* * *

كانوا سبعة وثامنهم كلبهم . أما الكلب فهو الكلب

وأما هم فأولهم هذا الضحاك الذي اغتم ونام في آخر الأمر ، وثانيهم هذا الذي غنى ونام من قبله ، وثالثهم صاحب قطعة النور، ورابعهم صاحب الماء اللذيذ، وخامسهم صاحب سادسهم، وهما اللذان أرادا منذ أول الأمر أن يريا في هؤلاء الجماعة جداً أو هزؤاً وسخرية إن لم يريا الجد

فأين كان سابعهم ؟..

سابعهم كان جالساً على حجر عند مدخل الكهف يتمتم قائلاً :

— هو . هو . هو . هو . هو.. هو

* * *

وانقضى اليوم . واجتمعوا عند مدخل الكهف حول هذا المتمتم ، فسأل أولهم : ماذا وجدت ؟ فضحك . فقال له : أمجنون أنت ؟ لقد سكتنا عن ضحكك هذا عند ما كنا في الطريق ، ولكننا الآن لا نستطيع أن نسكت عنه بعد أن قضينا يوماً بحثاً ...

فضحك ... فقالوا جميعاً : دعه ، إنه مجنون . فتركه يضحك

ثم سأل الثاني : ماذا وجدت ؟ فقال له : غادة هيفاء ، وروضة فيحاء ، ونسيم عليل ، وخمر وغناء ، ورقص وتسابيح ، ودنيا أخرى غير هذه ما فيها إلا السعادة والنعيم ...

فسأله : أين هي ؟ فقال : ها هي ذي ... أما تراها ... إن كنت لا تراها فهي إذن قد ولت ... يا خسارة ...

فقال له : إذا عدنا إلى المدينة فسفها الناس يرحبوا بك شاعراً

ثم سأل الثالث : وأنت ماذا وجدت ؟

فقال له : هذه ... تلمع في النور ، وتلمع في الظلام ، لها أنوار مختلفة الألوان ، حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء ... أنا لا أدري ما هي ولكني أحبها ، وأنت أيضاً تحبها ، والناس جميعاً يحبونها ، أليس كذلك ؟

فقال له: نعم ، فإذا نزلت إلى المدينة فاخلب بها الأنظار والألباب إنها السحر ... ولكني أوصيك ألا تؤذي بريقها امرأة ولا طفلاً ولا رجلاً ضعيفاً ، فما كل عين تطيق هذا التألق الخطاف ...

ثم نظر إلى الرابع وسأله : وأنت ماذا وجدت ؟

فقدم له القدح وقال له: اشرب ، فقال له : ما هذا الذي تريدني أن أشربه ؟ فقال له: ماء وجدته . فسأله: أين ؟ فقال : لن أقول، فإن لي به سلطاناً لو شاع بين الناس فقدته... إنه شراب لذيذ ومسعد

فقال له : لا ريب إن كنت لا تزال صادقاً ... فارجع به إلى أهلك فاسقهم منه يقيموك فيهم كاهناً يطلبون عندك الراحة كلما تعبوا ... ولكن لماذا لا تدلهم على سر هذا الشراب حتى إذا مت وجدوه من بعدك ...

فقال : من بعدي ؟ ما لي أنا والذين بعدي ، والذين قبلي ؟ هل عطف عليَّ من أهل هذه المدينة أحد ... لا يا سيدي ، لكل منا سره ...

... ثم نظر المتمتم للصاحبين الملازمين وسألهما : ماذا رأيتما ؟

فقال الصغير : رأينا كم أنتم ، وقد عرفتكم جميعاً إلا أنت يا من تسألني .. وتسأل الناس لم أعرف ماذا وجدت أنت ؟ ولا ماذا ستصنع عند ما تعود إلى المدينة ...

فقال الكبير من الصاحبين : هذا يا صغيري رجل ، له ولي ، كلما فرغ نصب وذكره ، فهو دواماً معه ...

فسأل الصغير — ومن وليه ؟

فأجاب الكبير — هو ...

فسأل الصغير مرة أخرى — ومن هو ؟ !

فأجاب الكبير مرة أخرى — اسأله هو ...

فسأله الصغير - قل لي من هو ؟

فقال له — عند ما أستطيع الكلام سأقول لملك ...

ثم نزلوا إلى المدينة ... ووراءهم كلبهم . فلما تشتتوا كان الكلب يعود إلى الكهف وحده بين الحين والحين لينام ، فقد استطاب الهواء الذي هناك .

عزيز أحمد فهمي